الموقف الأدبي ، دمشق ، العدد ١١٨ ، شباط ، ١٩٨١ ، ص ص ١٥-٢٤

خواطر حول كتابي
«تاريخ النقد الحديث»

رينيه ويليك

ترجمة : عبد النبي اصطيف

ينبغي أن أبدأ باعتذار ، أو بشرح بالأحرى. فقد سئلت من قبل منظمي هذا المؤتمر ، أن أتحدث عن الأفكار الأساسية الضمنية في كتابي« **تاريخ النقد الحديث** » **History of Modern Criticism** ، وقبلت ليس بغاية الترويج له أو حتى الدفاع عنه ، ولكن لأنها فرصة لي لأتأمل في كتابة التاريخ الفكري ، أو كتابة تاريخ للنقد على وجه الخصوص .

لقد قرأت الكتابات الجديدة الواسعة عن كتابة التاريخ ، والتي تسودها ـ على الأقل في العالم الأنكلو ـ سكسوني ـ مناهج الفلسفة التحليلية ، ولكنني أعرضت عنها خائباً ، لأن جميع هذه الكتب والأبحاث من الناحية العملية تحلل مشكلات ذات صلة واهية أو لا تمت بصلة لكتابة تاريخ للنقد . ان اغلب هذه المناقشات معني بقضايا المسؤولية الأخلاقية، أو استجرار اللوم، للسلوك الانساني الطبيعي أو غير الطبيعي، بحوادث كالميتات المفاجئة أو الاغتيالات. فنحن ندرس مشكلات ك «لماذا طعن بروتوس قيصر ؟» أو « لماذا مات لويس الرابع عشر دون أن يكون محبوباً ؟. ان مشكلات تاريخ النقد المختلفة قليلاما تثار في أي مكان آخر . اننا ينبغي أن نذهب الى مجالات أخرى للمقابلة والى انموذجات ممكنة .

من الواضح ان تاريخ النقد يختلف بشكل اساسي عن التاريخ السياسي أو الاجتماعي أو الاقتصادي بوجه بارز هو ان النصوص التي يقوم عليها تاريخ النقد سهلة المنال فوراً ، ويمكن أن تقرأ ويعلق عليها وتفسر ويحاج فيها وتنقد بدورها ، وكأنها قد كتبت البارحة على الرغم من انها كتبت ـ كفن الشعر لأرسطو ـ قبل ٢٣٠٠ سنة مضت. وهكذا فان تاريخ النقد ليس تاريخاً بالمعنى الذي نكتب فيه تاريخ المعارك على سبيل المثال : ان معركة واترلو ينبغي أن يعاد انشاؤها من روايات شهود العيان المسجلة . ومن الأوامر والشروح المكتوبة أو ربما من بعض

البقـايا المادية ، في حـين ان نصوصـاً كهومروأفلاطون ماثلة تماماً مثـول البارثينـون ، أو لوحات Giotto الجصيّة في Arena Chapel . ويبقى تاريخ النقـد مختلفاً عـن تاريخ الفن أو الموسيقا والشعر بعـدم مواجهة مهمـة وجوب الترجمة من أداة (أو من لغة أو مدونة كما هو شائع الآن) الى اخرى . اننا في كتابة تاريخ النقدنستعمل أو ينبغي أن نستعمل اللغـة نفسها ، (حتى عندما نترجم عـن اليونان القدماء) لغـةالمفاهيم . وباختصـار ان تاريخ النقـد يقـدم المشكلات نفسها التي تقدمها جميع تواريخ الأفكار؛ تاريخ الفلسفة ، تاريخ علم الجمال ، تاريخ الفكر السياسي والديني والاقتصادي، تاريخ اللغويات وفروع كثيرة أخرى من المعرفـة .

وهكذا فان لدينا عوناً ونماذج . ومن سوء الحظ ان ليس ثمة الكثير مما يمكن تعلمه مـن تواريخ النقد الأخرى . ان التاريخ العام الوحيدالذي سبق كتبي(كتاب سانتسبري Saintsbury الذي يعود الى ١٩٠١–١٩٠٤) هو بشكل متعمدمعـاد للنظرية ، وتاريخ انطبـاعي للذوق . ان سانتسبري يحتج على «خطأ الاستسلام للأوهام بعد أسئلةمجردة عن طبيعةالشعر ومسوغاته»(٢)، ولا يكاد يدلي بأيـة آراء عـن منهجه في الكتابةباستثناء اعطائنا مصوراً ومسحاً ويمكن ان يفاد أكثر مـن مراجعة ر.س. كرين R. S. Crane لكتـاب ج. أتكينز J. W. Atkins : **النقـد الأدبي الانكليزي: القرنان السابع عشر والثامن عشر English Literary Criticism : 17th and 18th Centuries** (١٩٥٣) . ان كرين يرفض تلخيص اتكينز الممل للمـذاهب ، ويريـد تحليلا زمنياً لنصوص معينة « تاريخاً دون أي التزام مسبق بماهية النقد و بما يجب ان يكون عليه » تاريخاً « دون اطروحة » وهدف كهذا أعتبر أنه عسير البلوغ وغير مرغوب فيـه .

وقد قيـل أكثر من هـذا عن كتابة تاريخ للفلسفة ، ويستطيع المرء ان يتتبع تاريخاً لهـا من ديوجينس لايريتوس في القرن الثالث الميلادي، الى خلاصـة جاكوب بركر Jakob Brucker في القرن الثامن عشـر (١٧٤٢–١٧٦٧ ، خمسةمجلدات) ، الى مجلدات فيلهيلم غوتليب تنمـان Wilhelm Gottlieb Tennemann الاثني عشر(١٧٩٨–١٨١٧) ، الى مؤلف هيغل : « **محاضرات في تاريخ الفلسفة** » (نشر بين عامي ١٨٣٣ و١٨٣٦، ولكن اعتمد فيه على مخطوطات وكتابات لطلاب تعود أحيـاناً الى ١٨١٥–١٨١٦) . ان جميـع التواريخ التي سبقت مؤلف هيغل يمكن ان تدعى Doxographies اي تلخيصات وشروحاً لمذاهب وفلاسفة مرتبة اما تبعاً للمدارس (أفلاطونية ، تشكيلية، ابيقورية، رواقية الخ..) او تاريخياً، مع طموح للقيام بهذا العمل بحيادية وبوصفيـة على الرغم انه من السهل تتبع تحيز ليبنتسي* Leibnizian عند بركر ، او كانتي لدى تنمان . ومع هيغل تغير مفهوم تاريخ الفلسفةكله جذرياً . فهو يقرر في مدخله باصـرار ان تاريخ موضوع ما يعتمد بشكل وثيق على المفهوم الذي يملكه المرء عن الموضوع . ويعترف ان للفلسفة (وهذا يمكن ان يكون حتى اكثر صحة في مجال النقد) بالمقارنة مع العلوم الأخرى عيباً ، وهو أن هناك آراء غاية

★ غوتفريد فيلهلـم ليبنتس G. W. von Leibniz فيلسوف وعالم ألماني عاش بين عامي (١٦٤٦ – ١٧١٦) وهو فيلسوف متفائل يقول بالطبيعة الخيرة (ع١٠) .

في التنوع حول ما ينبغي ـ او ما تستطيع ـ ان تقوم به الفلسفة . ولكن أولئك الذين يحتجون على تنوع تظاهرات الفلسفة هم ـ كما يقول هيغل على نحو من البداهة الجافة غير عادي ـ كالرجل الذي نصحه الطبيب أن يتناول الفواكه ورفض عندئذ الكرز والخوخ والعنب . « وهكذا فان التنوع ليس اضعافاً للفلسفة ولكنه ضرورة مطلقة لوجودها. لذلك فان دراسة تاريخ الفلسفة هو دراسة للفلسفة نفسها » . ان تنوع الفلسفة يتصور ليس كتتابع عشوائي ، ولكن ك « كل ينمو عضوياً ، وكاستمرارية عقلانية ، أن للفلسفة تاريخاً هو عملية متسقة وضرورية » لقد كانت كل فلسفة ضرورية ، ولم تنته اي منها تماماً ، والفلسفة الجديدة يعني فلسفته ـ ما هي الا « نتيجة جميع الفلسفات التي سبقتها » ويوضح هيغل المفارقة في « اننا في تاريخ الفلسفة ، وعلى الرغم من انه تاريخ ، نظل بغير حاجة الى تناول اي شيء ماض » ويقول « ان الحقيقة ليس لها تاريخ ، وليست ماضياً » . وقد تضمن هذا بالنسبة الى هيغل حق المؤرخ وواجبه في ان يحاكم ويقرر أياً من هذه الأفكار يتبع سلسلة التطور . ان تأملات هيغل التمهيدية في « **تاريخ الفلسفة** » تظل اليوم ذات صلة ولمؤرخ النقد ايضاً .

انها تثير القضية التي كان علي أن اواجهها . هل هنالك موضوع كالنقد يمكن عزله عن فعاليات الانسان الأخرى . وهل يظهر النقد نوعاً من الوحدة والتركيز والاستمرارية ؟ لقد أجبت بنعم على كلا السؤالين ، وذلك على الرغم من ان بنديتو كروتشه في كتيبه المبكر **Critica Letteraria** (١٨٩٤) واريك أورباخ(٣) في مراجعته لكتابي « **تاريخ النقد الحديث** » ـ على سبيل المثال ـ انكرا ان النقد موضوع موحد بسبب « تعدد المشاكل المحتملة ، والمشاكل العابرة ، والتنوع الكبير في افتراضاته المسبقة واغراضه ولهجاته ، وانا قانع بأن أجيب بأن النقد هو اي كلام عن الأدب . وهكذا فانه مقيد بموضوعه ـ كما هو الشأن في علوم اخرى كثيرة ـ وتشعب المشكلات والمداخل هو موضوع الكتاب بالضبط واحد مهماته فرز الطرق المختلفة في تعريف موضوعه واعتباره اياه . ان تاريخاً لمفهوم النقد ، والأدب ، والشعر ، هو في المركز تماماً من الكتاب .

وبينما يرى كروتشه واورباخ الكرز ، والخوخ ، والعنب فقط ، وينكران فيما يبدو وجود الفواكه ، فان مؤرخين آخرين قد حاولوا ان يزيلوا التمييز بين الفواكه ، وحياة النبات كلها ، او ـ ان تركنا الاستعارة ـ الفارق بين النقد الأدبي ، ونقد الفنون الأخرى كنقد الفن ، أو الموسيقا ، وانكروا حتى امكانية مناقشة النقد على انه اي شيء باستثناء كونه فرعاً من التاريخ العام . وهناك حق لا يمكن انكاره في الراي القائل بأن الواقع يشكل نسيجاً محكماً ، وان اي نشاط للانسان متصل بنشاطاته الأخرى . ان النقد الأدبي متصل بتاريخ الأدب وسائر الفنون الأخرى ، بالتاريخ الفكري ، بالتاريخ العام سواء أكان سياسياً أم اجتماعياً ، وحتى الظروف الاقتصادية تلعب دورها في تشكيل تاريخ النقد. وقد قامت محاولات لجعل النقد ـ وبكل بساطة ـ مرآة لزمن ووضع معينين . وهكذا فان برد نارد سميث(٤) Bernard Smith في كتابه « **قوى في النقد**

الأمريكي : دراسة في تاريخ الفكر الأدبي الأمريكي **Forces in American Criticism Astudy in the History of American Literary Thought** ، يقرر وباصرار ان « النقد الأدبي يبدو لي متصلاً بالتاريخ الاجتماعي بشكل أوضح مما عليه أي من الشعر أو القصة » . ويبدو لي ان النقد كـ « ايديولوجية » ليس بالمعنى الغالب لـ Weltanschauung وانما كوعي مزيف بالواقع، كمجرد ناطق باسم اتجاهات ادبية او اجتماعية محددة . انه يصبح مندغماً بالتاريخ الفكري ، ويغدو تعبيراً عن التغيير الثقافي نفسه. اننا نواجه بمشكلة الحتمية كلها ، وبالراي القائل « ان كل شيء ينبغي أن يعالج لا على انه متصل بكل شيء آخر »(٥) ، وانما على انه عرض لشيء آخر ما . لقد ناقشت المسألة كلها عدة مرات في مكان آخر(٦) ، واستطيع هنا ان اعيد نتيجتي فقط . ان العلة ـ بالمعنى الذي يحدد موريس ر. كوهين Morris R. Cohen «كسبب او كمسوغ لوجوب استتباع نتيجة ما عندما يعرض حادث مسبق »(٧) ، لا يمكن تطبيقه في التاريخ الأدبي او في تاريخ النقد . ان عملا ما يمكن ان يكون شرطاً ضرورياً لعمل آخر ، ولكن المرء لا يستطيع ان يقول انه سببه، ان عليه ان يمنح شيئاً ما للحرية الانسانية، لقرار الفرد ، ولكننا لسنا بحاجة في هذا السياق الى ان نتحرك في هذا المخطط المجرد .

انني كمؤرخ للنقد ينبغي ان اقوم بمحاولة وصف صلة النقد بجميع فعاليات الانسان الاخرى، دون أن أتخلى عن التركيز على الموضوع المركزي. ان صلة النقد بممارسة الكتابة ينبغي ان تظل باستمرار ماثلة بالذهن . وهنالك أحياناً ذلك التوحد الشخصي للشاعر الناقد ؛ وبشكل بارز جداً في الأدب الانكليزي ، حيث نجد شعراء كـ درايدن ، وردز وورث ، كولريدج ، وماثيو أرنولد ، ت.س. اليوت ، هم علامات بارزة في تاريخ النقد ايضاً . لقد كتب الكثير من النقد دفاعاً خاصاً عن اتجاه أدبي ، او مدرسة ادبية . وبامكاني ان اشير فقط الى الأخوين شليغل كمبشرين بالرومانتية ، او الى الشكليين الروس كمدافعين عن المستقبلية . والنقد متصل بشكل وثيق بعلم الجمال، ويمكن ان يكون ببساطة ـ كما حاج كروتشه ـ فرعاً منه ، وانا بالفعل اناقش كتّاباً ككانت ، وشيلر ، ورسكين ، وكروتشه ، على الرغم من اني احاول أن امضي بعيداً عن التأملات المجردة حول الجمال والاستجابة الجمالية . والنقد كذلك يتأثر وبعمق بالفلسفة: فتجريبية النقاد البريطانيين في القرن الثامن عشر يمكن مقابلتها بالافتراضات المثالية ، وأحياناً الصوفية ، للنقاد الألمان في الفترة الرومانتية ، بمقدار اختلاف هؤلاء الأخيرين عن وضعيي نهاية القرن التاسع عشر في فرنسا . وما كان بامكاني ان اتجاهل تأثير التاريخ السياسي على النقد عندما أدرس مدام دوستايل المبعدة من قبل نابليون او مروجي الأفكار اللبرالية ، وجورج براندرز ، او حماسة المعادين للقيصرية Anti-Tsarist من النقاد المتطرفين في روسيا في الستينات من القرن التاسع عشر . وأنا أفكر حقاً في بعض المناسبات في الأسس الاقتصادية للنقد : أصول الطبقات المختلفة، وولاءات النقاد. ان الأساتذة الألمان في بداية القرن التاسع عشر (بما فيهم هيغل) يختلفون بشكل واضح في أسلوب حياتهم عن البوهيميين الفرنسيين كبودلير أو عن

الصحفيين المكافحين كالروس بيلنيسكي، Belinsky ودوبروليوبوف Dobrolyubov وبيساريف Pisarev .

وكل هذا حسن وجيد ، ولكننا لا نستطيع أن نأتي الى المسألة المثارة في شواهد هيفل . اننا ينبغي ان نفكر في النقد كنشاط مستقل نسبياً ، فانه لم يتحقق اي تقدم قط في اي فرع من فروع المعرفة ما لم تتم رؤيته في عزلة مقارنة، وما لم يوضع كل شيء آخر ـ لنستعمل مصطلحات الظاهراتيين ـ بين قوسين . ان هذه العزلة ، والتي لا تعني بالطبع : « النقد في سبيل النقد » ، أمر نفعي ، فالكتاب ـ حتى ولو كان كبيراً ـ ينبغي ان يكون ذا حدود . فلو كان علي أن اناقش مسألة صلة النقد بممارسة الأدب ، فانني ينبغي ان اتفحص ـ على سبيل المثال ـ جميع مآسي شيلر ، وابحث فيما اذا كان وردز وورث قد كتب الشعر بلغة الانسان العادية . وسرعان ما اهدم وحدة موضوعي واستمراريته وتطوره ، واجعل تاريخ النقد يذوب في تاريخ الأدب نفسه . اننا لا نستطيع ان نتمكن من الموضوع الا عن طريق تحديده .

ولكن كيف نتمكن منه ؟ كيف يمكن للمرء ان يوفق بين الحقيقة البسيطة في اننا ندرس نصوصاً ماثلة الآن ، وبين ان نظل نفكر فيها على انها جزء من الماضي ، على انها تاريخ ؟. يمكن للمرء أن يحاج ان ليس هنالك من تاريخ للنقد او حتى للأبد . لقد قرر كر W. P. Kerr أن المؤرخ الأدبي هو كدليل في متحف يشير الى الصور ويعلق عليها. واعلن كروتشه في سياقات عديدة ، أن اعمال الفن فذة وفريدة ، وانها ماثلة فوراً ، وان ليس ثمة من تواصل أساسي فيما بينها . اننا في النقد يمكن ان نقول ان المشكلات التي ناقشها افلاطون وارسطو ما تزال بيننا اليوم . اننا ينبغي ان نتعامل مع ما دعاه غاليه(٨) W. B. Gallie وبشكل اخاذ « مفاهيم خلافية أساساً » ويمكن أن نأخذ مفاهيم كـ« المحاكاة » Imitation ، «والمأساة» والشكل والتطهير ـ لنذكر بضعة مصطلحات أساسية من كتاب فن الشعر ـ ونناقشها كما لو انها نطقت البارحة ، ويمكن ان نسأل هل هي صحيحة أم لا ؟ هل تعني شيئاً ؟ كيف يمكن ان تنطبق على ادب اليوم ؟ انني أوافق على ان هناك مشكلات مزمنة حاضرة حتى اليوم ، وان ارسطو وكانت وكولريدج، وفريدريك شليغل، و ت.س.إليوت وآخرين ، يسألون اسئلة نحن معنيون بالاجابة عنها ، وان هذه الأسئلة هي نفسها غالباً على الرغم من انها تصاغ في الغالب بشكل مختلف وبمقررات جديدة. ويبدو لي ان احدى وظائف تاريخ النقد ان يظهر للقارىء ان ما اعلن عن انه اكتشاف جديد قد قيل مرات كثيرة من قبل .ان النقد الحديث يمكن ان يوصف بأنه عملية اعادة اكتشاف مستمرة للمسائل القديمة .ولكن فكرة الأسئلة المزمنة كلها قد جرى تحديها من قبل نزعة التاريخية الجديدة New-Historicism ، وقيل ان مفاهيم ارسطو ليست مفاهيم لا زمنية ، ولكنها مرتبطة بالزمن ، وان «المأساة» تعني بالنسبة له شيئاً ما مختلفاً جداً عما تعنيه بالنسبة لنا ، لأنه لم يعرف غير المسرحيات الاغريقية . ان كل ناقد يكتب في عصره ، وهو مغلف بهذا العصر. واعتقد اننا ينبغي أن نعترف بخطر افتراض مفاهيم لا زمنية بسهولة . ويجب

أن نكون على وعي بتحول المعاني وان لا ننخدع بورود الكلمات والتراكيب نفسها . ولكن هذا يبدو لي بالأحرى تحدياً للمؤرخ أكثر منه عقبة لا يمكن التغلب عليها . انني لا أستطيع ان أؤمن بالماضي المبهم ، بالدوائر المغلقة لأرواح العصر المفترضة في الفلسفة الهيغلية ومشتقات ك شبنغلر O. Spengler و كثير من Geistesgeschichte* الألمانية يعقلها الوسيط أو انسانها الباروكي .

وقد كتبت انا بالذات عدة دراسات في علم الدلالة التاريخي (تنسج الى حد ما على منوال دراسات ليوشبيتزر Leo Spitzer حول كلمات أو Stimmung (صوت) و Milieu (بيئة) حول مفاهيم النقد ، الفترة ، التطور ، وخمس مصطلحات ــ فترة : الباروك ، الكلاسية ، الرومانتية ، الواقعية ، الرمزية . ولكنني رفضت فكرة تنظيم « تاريخي » حول تتبع مفاهيم منفردة ، أو أفكار وحدات كما زكيت في منهاج آرثر لف جوي Arthur O. Lovejoy الخاص بتاريخ الأفكار . انها تحطم نظام النقاد الأفراد (الذين غالباً ما وضعوا باعتراف الجميع معاً بشكل غير محكم ومتناقض) وتجعل فهم فرديتهم وشخصيتهم (والتي لا ينبغي أن ترى بمعنى سيري Biographical) أمراً مستحيلا . فلنكن على وعي « بفخ الاستمرار المزيف » كما سماه بيتر غاي Peter Gay ، ولكن لنبقى مصرين على اننا نستطيع ادراك مفاهيم ومشاكل العصور والمؤلفين حتى البعيدين منهم . لقد تم التأكيد على معضلات زائفة من قبل المسؤولين المحدثين، ان الانسان يستطيع أن يفهم انساناً ما اذا منظور مختلف عن منظوره . وقد أوضح فيلهيلم ديلثي Wilhelm Dilthey الرأي القائل بأن الناس يشتركون في امكانية عامة هي ان يكونوا غير ما هم عليه .

وعلى أي حال فاننا نستطيع أن نقنع بفكرة لا زمنية النقد إن أردنا كتابة تاريخ على الرغم من ــ أو بسبب ــ اننا نعرف أن المفاهيم تستمر خلال التاريخ . اننا اذا ما تناولنا مفاهيم على نحو محض على أنها حاضرة، فاننا لا نكتب تاريخاً للنقد . وانما مدخلا للمشكلات النقدية في مناسبة أرسطو ، درايدن ، ليسنغ ، ماثيو أرنولد ، هيبوليت تين ، وآخرين . وثمة كتب تنسج على هذا المنوال ، فكتاب آي ، إيه ، ريتشاردز I. A. Richards **كولريدج عن الخيال Coleridge on Imagination** ينتزع كولردج من التاريخ ويناقش مفهوم الخيال ، مفهوم التحام الذات بالموضوع، والأسطورة، في محاجة مباشرة مع اقوال كولريدج . وكتاب: **النقد الأدبي: تاريخ موجز Literary Criticism : A Short History** لوليام ، ك، ويمزات ، وكلينث بروكس(٩) ، يدعو نفسه «جدلياً» «خلافياً» على الرغم من ان هذا ابعد من ان يكون وصفاً كافياً لكتاب مليء بالرؤى التاريخية .

ان تاريخ النقد ــ كما اتصوره ــ لا يمكن ان يكون ببساطة نقاشاً لنصوص لا زمنية ، ولا يمكن احالته على فرع من فروع التاريخ العام أو التاريخ الثقافي . اننا ينبغي أن نفكر في تاريخ

★ المقصود بهذا المصطلح هو « تاريخ الروح ــ روح العصر »ومن أجل تفصيلات اخرى انظر ويليك ، **مفاهيم النقد** (بالانكليزية) ، مطبعة جامع ييل ، نيوهافن ولندن ، ١٩٦٩ص ص (٢٧٢ ــ ٢٧٤) (ع ١٠) .

داخلي للنقد . وهيغل يفترض هذا بالنسبة الى تاريخ الفلسفة ، وكروتشه يفعل الشيء نفسه في الجزء التاريخي من كتابه « علم الجمال » . ان الفلسفة وعلم الجمال يفترض فيهما أن يتجها نحو الحادث الإلهي الواحد ، فلسفة هيغل أو علم جمال كروتشه . ان هذه التواريخ يمكن أن تدعى الاستعادية **Retrospective** : انها تفترض ان الفلسفة وعلم الجمال قد وجدوا خاتمتي مطافهما . وقد كنت موضع ريبة في الاشتراك في هذا الرأي واتهمت بالنظر « باستخفاف الى النقد ، كسلسلة من الاخفاقات ، كمحاولات محكومة بالفشل لتسلق مرتفعات أمجادنا الحاضرة » . ربما ممثلاً بكتاب «**نظرية الأدب**»(١٠) **Theory of Literature** . ولكن هذا سوء فهم « **لنظرية الأدب** » والذي هو تجربة متسامحة وذات عقلية منفتحة لنظريات كثيرة ، وقد فند سوء الفهم هذا في كتابي «**تاريخ النقد الحديث**» . ان لي وجهة نظر ، وعلي أن أنتقي نصوصاً ومؤلفين . ان فكرة تقديم تاريخ حيادي تماماً ، وشرحي صرف تبدو لي وهماً . فلا يمكن أن يوجد تاريخ دون الاحساس بالاتجاه ، دون شعور بالمستقبل ، دون مثال ما ، أو مستوى ما ، وبالتالي ادراك مؤخر ما Hindsight ، ولست أدري لماذا قرّعت من قبل برناردر وينبرغ* Bernard Weinberg لرجائي في ان تاريخ النقد « ربما يفسر حالتنا الراهنة » ولا لماذا منعت من تحبيذ مذاهب لسنغ وفريدريك شليغل وصيغهما . ولكن اعتناق وجهة نظر او حتى اعتقاداً خاصاً لا يمكن أن يعني أن المداخل او المنظورات الأخرى تبقى غير مرئية .

ان وظيفة كتاب ككتابي هي **توسيع التنوع الكبير في الآراء ولكن دون تخلي المرء عن منظوره الخاص** . انني أود أن أفكر في كتابي « **تاريخ النقد الحديث** » ــ اذا ما استعملنا التصنيف الذي اقترحه جون باسمور(١١) John Passmore لتواريخ الفلسفة كتاريخ « توضيعي » وليس كتاريخ « خلافي » أو « جدلي » بمعنى تفنيد ناقد ما ، ولكن يبقى ذلك دون تجنب تصنيفه ، وكذلك ليس كتاريخ ثقافي يعرض الوثائق فقط كممثلة لفترة أو اتجاه . ان كثيراً مما في كتابي لا بد أن يكون شرحياً ، وجمعاً للأفكار الفلسفية ، لأن من المفروض بالكتاب أن يكون ذا فائدة للآخرين ، وأن يهدف الى شرح الأفكار النقدية من خلال دراسة مباشرة للنصوص . ومن المحتم أن يكون الكثير استعادياً فأنا لا أستطيع الا أن اختار وأحاكم من خلال فرصة الأفضلية المتاحة لي . والبعض هو تاريخ ثقافي : فأنا ينبغي أن أوحي بالطريقة التي يتناسب فيها الناقد مع عصره . ولكني كنت دائماً على وعي بمظهر معالجة النقاد كأعراض لعصرهم وبالتالي بقائهم دون روابط بماضي مناقشاتهم . ان الروابط بين النقاد تكف عن ان تكون ذا شأن . انني اعرف مشكلة الجديد : اضافة مشكلة جديدة ، اوظهورها ، قضية الأصالة ، قرابة الأفكار . وأنا لا اعتقد ــ على سبيل المثال ــ ان من غير المهم الاشارة الى المصادر الأساسية الألمانية لنظريات كولريدج ، انها تجد مكاناً له في التاريخ الفكري ، وتحول دون اطلاق نوع من الحكم كذاك الذي يطلقه ريتشاردز على سبيل المثال عندما يجعله غاليله النقد والرائد المفترض نيوتن(١٢) .

★ انظر وينبرغ ، ١٩٦٩ ، وويليك ، ١٩٦٩ .

اننا اذا ما سمحنا بامكانية اختلاف وجهات النظر، فاننا نقع في خطر التاريخية Historicism وحتى في خطر النسبية التامة . ولكننا لسنا بحاجة الى اعطاء نتيجة كهذه . فنحن نظل نستطيع ان نحكم على مزايا الأفكار المختلفة ، وأن نرى المسوغات النسبية لهذه الصيغة أو تلك ، أو لهذا الجواب او ذاك . اننا لسنا بحاجة الى التوفيق بين التناقضات العميقة، والصراعات وان ندعي « التركيب » Synthesis لنتجاوز الاقتطافية Eclecticism ويبدو لي ان تصور فهم أكبر او اقل لطبيعة الأدب أو الشعر قابل للتحدد موضوعياً . يقول باسمور(١٣) Passmore ــ مرجعاً رأي هيغل ــ الحقيقة ليس لها اي تاريخ ، ولكنه يضيف ان مناقشة المشكلات لها تاريخ .

كيف يمكن تصور استمرارية كهذه ؟ لقد أملت في سنيني المبكرة أن بالامكان الوصول الى تاريخ تطوري للأدب والنقد . فبامكان المرء أن يفكر ــ على نهج الشكليين الروس Russian Formalists ــ على وجه الاجمال بتاريخ ادبي يبلى بأتمتة Automatization الأعراف، متبوع بتحقيق اعراف جديدة تستخدم أدوات ومفاهيم جديدة على نحو جذري . يستطيع المرء ان يفكر في سياق تقليدي وثورة ، والجدة هي معيار التغير الوحيد. ولكنني تبينت ان هذا المخطط بسيط الى حد بعيد ، وانه لا يجيب عن السؤال الأساسي المتعلق باتجاه التغيير ، وأن المخطط يتضمن مفهوم زمن يفنده علم النفس الحديث . اننا نقر اليوم بتزامن موجود بالقوة في تطور عقلية الانسان . انه يؤلف بنية نهائية في أية لحظة . وهنا تفسير للنظام العلني في الخبرة والذاكرة . ان العمل النقدي ليس مجرد عضو في مسلسل ، او حلقة في سلسلة ، انه يمكن ان يكون على صلة بأي شيء في الماضي ، والناقد يمكن ان يصل الى أبعد أعماق التاريخ . ان تاريخاً تطورياً للنقد لا بد أن يخفق . لقد انتهيت الى هذه النهاية المذعنة.

ولا أستطيع أن اقبل النموذج المقترح لتاريخ العلم في كتاب توماس كون Thomas Kuhn **بنية الثورات العلمية » Structure of Scientific Revolutions** . ان كون يحاج ان قوانين النظرية والتطبيق العلميين تختلف من فترة الى فترة بشكل جذري . وأن هناك ما يسميه « نماذج » او « أمثلة » Paradigms او « قوالب معرفية » ناتجة عن عبقريات علمية منفردة ك كوبرينكس ، نيوتن ، لافوازييه Lavoisier اينشتاين . انها تقدم نماذج ، انظمة اعتقاد ، نصوصاً يدعوها كون « نموذجية » . وهذه النماذج غير قابلة للقياس لانه لا يكون ثمة ازدياد او تراكم للمعرفة العلمية الا ضمن النموذج الواحد Paradigm . وحتى الكلمات التي نستخدمها لها معان مختلفة ، يقول كون ، « كيف يمكنهم ان يأملوا حتى في مجرد الحديث وليس هناك غير القليل مما يقنع »(١٤) . وربما كان تطبيق هذا المخطط على تاريخ النقد مغرياً . ويمكن للمرء أن يحاج انه كان هنالك نموذج قدمه أرسطو ، وأن هذا النموذج قد استعيض عنه تماماً بالرأي الرومانتي ، الذي ربما تأصل في كتابات كانت وهردر Herder . ويمكن له ايضاً ان يتحدث في القرن العشرين ــ على الأقل في العالمين الانكليزي والأميركي ــ عن نموذج قدمه ت.س. اليوت . وربما كان من المعزي الحديث عن وجهات نظر لا يمكن التوفيق فيما بينها اطلاقاً ، او قبول

التعـددية **Pluralism** في المناهج ، وبالتـالي تفسير صعوبات الاتصال الحالية المتزايدة، وبرج بابل ، واختلاط الألسنة .

وقـد قامت محاولة لتطبيق مخطط كون Kuhn على تاريخ اللغويات في كتـاب جماعي **« دراسات في تاريخ اللغويات » Studies in the History of Linguistics** جمـع مـن قبـل الأنتروبولوجي ديل هيمز Dell Hymes (١٩٧٤). ولم اكن مقتنعاً ان اللغويات قد مرت بثورات تامة لهذه . فثمة استمرارية في تاريخ اللغويات ، تبرهن على ذلك بعض مباحث الكتاب باقناع. ان اللغويات علم تراكمي على الرغم من التحول في التركيز والاهتمامات المختلفة . وانا اوافـق كيث برسيفـال Keith Percival في مقالتـه الأخيرة المنشورة في مجلة « اللغة » **Language** في ان قبول راي كون يتيح النهوض « لحالة غير صحية » ، سوف تنظر اللغويات الى « جميـع الخلافات النظرية على انها صراعات بين نماذج متنافسة ، اي وجهـات نظر غـير متكافئـة ، وتستعمل هـذا عذراً في عـدم اتباع القواعـد الأساسية في المناقشة العقلية «(١٥) . والمحاجـة نفسها صحيحـة بالنسبة الى النقـد . فليس هنالك من ثورات تامة كهذه في تاريخ النقد كما يشترط كون في تاريخ العلم . ولا ثمـة فترات سادتها شخصية واحدة ، ونص مقدس واحد . وعلى الرغم مـن ان هناك وجهات نظر عديـدة ومختلفة ، فان بالامكان ـ بل تجب ـ مناقشتها عقلياً . ان النقد اهتمام سائر له مستقبل .وانا لا اؤمن ان الأشياء قد استقرت نهائياً (كما آمن هيغل وكروتشه) ، ولا أستطيع أن اعتقد بأن آرائـي وآراء معاصـري سيستعاض عنهـا بافتراضات مختلفة تماماً . لقـد كـان هنالك توضيح مستمر للمشاكل خلال التاريخ، وأساس اتفاق متنام حول قضايا كثيرة بالرغم من الصراعات الظاهرية. وانا آمل ان لا تكون اعتقاداتي مفروضة او مقحمـة كنسق ثابت متصور مسبقاً فقط .

وعملياً ، كنت راضيـاً بتصنيف نقادي بحسب اقطارهم . فالتقاليـد الوطنيـة ما تزال قوية جداً ، على الرغم من وجود تيارات عالمية كالتحليل النفسي والماركسية في هذا القرن . وبينما تبقى الفجوة ما بـين النقدين الانكليـزي والأميركي والتطورات في القـارة (الأوربية ع.ا) كبيرة (على الرغم مـن وجود تيارات متقاطعة في العقود الأخيرة) فان النقدين الأميركي والانكليزي لا يمكن معالجتهما منفردين . فقد انتقل ثلاثـة من الأمريكيين هنري جيمس ، عزرا باونـد ، ت.س اليوت الى انكلترا ، وانفق آي ، ايه ، ريتشاردز، أستاذ كامبريدج، عقوداً في كامبريدج والأخرى في ماساشوسيتس. والتصنيف تبعاً للنقاد ناتج عن اعتقادي بأن المبادرة الفردية، وليست الاتجاهات الجماعية هي التي تهم في النقد . ان النقاد ينبغي الا يعدوا قط مجرد حالات . ان تصوير النقاد واعطاء اللمحات الفكرية الى جانب الاحساس بالاتجاهات والظروف المتغيرة معـاً يصنعان تاريخاً . ولكن النظام لا يمكن ان يكون جدلياً او تطورياً . وكلما مضيت في دراسة حالة عصر معـين ، ازددت تجنباً للعناوين السهلة والتعميمات . وانا اثق انني في مسحي للحقـل استطيع ان احدد مداه وعمقه كما يحدده المساح باستخدام المثلثات : وانا لست بحاجة الى قياس كل قدم من الأرض . وقرار نهائي ما ينبغي ان يبقى للمؤرخ . اما قضية ما اذا كان اختيـاري صحيحاً دوماً فأمر لا استطيع ان احكم بـه .وينبغي ان انتظر، كأي مؤلف، حكم القراء والنقاد.

هـوامش :

١ ـ محاضرة ألقيت في المؤتمر الثامن «للرابطة الدولية للأدب المقارن The International Comparative Literature Association الذي عقد في بودابست في ١٢ـ١٧ آب ١٩٧٦ . ونشرت فيما بعد في مجلة P.T.L. وانظر : René Wellek, «Reflectin on **My History of Modern Criticism», P.T.L. : A Journal for Descriptive Poetics and Theory of Literature,** Vol. 2, No. 3. October 1977, PP. 417-427. (North-Holland Publishing Company, Amstrdm). (ع ١٠) .

٢ ـ ١٩٠٨ : ج١ ص ٣٦ (يشير الاسم المذكور في بداية الهامش الى المؤلف ، والسنة الى سنة صدور الكتاب أو المقال ، وبعدها يأتي رقم الجزء ـ ان وجد ـ ثم رقم الصفحة ، وينبغي العودة الى قائمة المراجع في نهاية هذا المقال ، وقد تم الالتزام بهذه الطريقة المستخدمة حديثاً في المؤلفات النقدية نظراً لما تتيحه من تسهيلات طباعية ـ ع ١٠) .

٣ ـ ٣٨٧ ـ ٣٩٧ .

٤ ـ ١٩٣٩ : ص VII

٥ ـ غومبريتش ، ١٩٦٩ ، ص ٣١ .

٦ ـ ويليك ووارين ، ١٩٧٣ : ص ٤٣٠ ـ ٤٣٦ .

٧ ـ ١٩٤٧ : ص ١٠٢ .

٨ ـ ١٩٥٨ : ص ١٥٣ الهامش .

٩ ـ ١٩٥٧ : ص VII

١٠ـ ويليك ووارين ، ١٩٤٩ .

١١ـ ١٩٦٥ : ص ١ ـ ٣١ .

١٢ـ ١٩٣٤ : ص ٢٣٢ .

١٣ـ ١٩٦٥ : ص ٣١ .

١٤ـ ١٩٧٠ : ص ٢٠٠ .

١٥ـ ١٩٧٦ : ص ٢٨٥ ـ ٢٩٤ .

★ ★ ★

المـراجـع :

Auerbach, Erich, 1967. [Review] «Wellek's **History of Modern Criticism,» Romanische Forschungen 67.**

Cohen, Morris R., 1947. **The Meaning of Human History** (La Salle : Open Court).

Crane, R.S., 1953. [Review] «J.W. Atkins's **English Literary Criticism : 17th & 18th Century,» University of Toronto Quarterly 22.**

Gallie, W.B., 1958. **Philosophy and the Historical Understanding** (New York : Schocken).

Gombrich, Ernst, 1969. **In Search of Cultural History** (London: Clarendon Press).

Hymes, Dell, ed., 1974. **Studies in the History of Linguistics** (Bloomington: Indiana UP).

Kuhn, Thomas, 1970. **Structure of Scientific Revolutions** (Chicago: Univ. of Chicago Press).

Passmore, John, 1965. «The Idea of a History of Philosophy,» in: **History and Theory: Studies in the Philosophy of History 5 (= The Historiography of the History of Philosophy)** (The Hague: Mouton).

Percival, Kenneth, 1976. «The Applicability of Kuhn's Paradigms to the History of Linguistics,» **Language 52.**

Richards, I.A., 1934. **Coleridge on Imagination** (London: K. Paul, Trench, Trubner & Co.).

Saintsbury, George, 1908. **History of Criticism** (Edinburgh: W. Blackwood).

Smith, Bernard, 1939. **Forces in American Criticism: A Study in the Historyh of Aemrican Literary Thought** (New York).

Weinberg, Bernard, 1969. [Review] «Wellek's **History of Modern Criticism,» Journal of the History of Ideas 30.**

Wellek, René, 1969. [Reply to Weinberg, 1969] **Journal of the History of Ideas 30.**

1973 «The Fall of Literary History,» in: eds., R. Koselleck & Wolf-Dieter Stempel, **Geschichte: Ereignis und erzählung** (Munich).

Wimsatt, William K. & Cleanth Brooks, 1957. **Literary Criticism : A Short History** (New York : Vintage Books).